

للدرب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ٢١ -

شاعر الملك فؤاد

نجيب باشا ، وكانت السياسة المصرية تسير في طريق ذي عوج ،
مهتد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون
إليه الولاء للقصر ؛ فهتئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن
يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب ، حراس على سلطة
الأمّة ، فنشأت بذلك قوة بإزاء قوة ، وتناظر سلطان وسلطان ،
وكان لكل طائفة لسان وبيان ...

في تلك الآونة ، تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعي
أن يكون شاعر الملك ؛ فلقى ذلك العطف الكريم بحقه من
الشكر والرضى وعرفان الجليل

وشاعر الملك أو شاعر الأمير لقب قديم في دولة الأدب ،
وله في تاريخ العربية تاريخ ، منذ كان الثابتة والنعمان ، وزهير
وهرم بن سنان ، والأخطل وبنو أمية ، والنواصي وأبو العتاهية
في بني العباس ، والبحترى في إمارة المتوكل ، والمتنبّي في بلاط
سيف الدولة ؛ إلى شعراء وملوك لا يحصىهم العدد . ولا ننس في
تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين : أبا النصر ، والليثي ؛
وليس بعيداً عنا أمير الشعراء المرحوم شوقي بك « شاعر الحضرة
الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم
تطمئن السلطة الحاكمة إلى بقائه في مصر بعد خلع الخديو عباس ،
فنفثته إلى الأندلس

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعي هو الشاعر المرحوم
عبد الحليم المصري ؛ فلما مات تطلعت إلى موضعه نفوس الشعراء ؛
وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ إبراهيم ،
إذ كان ما يزال في نفسه شيء يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين
شوقي من المنافسة الأدبية في صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير

وعاد الرافعي إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر ما نشر
من الشعر هو ديوان النظرات في سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده
إلا قصائد متفرقة في آحاد متباعدة ، لحادثة تنبعت لها نفسه ،
أو خبر يتغلغل به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر فيها بين ذلك ،
في سنة ١٩٢٤ ، في إبان العاصفة الهوجاء من حبّ فلانة ، وأكثر
شعره عنها منشور في كتبه الثلاثة التي أنشأها للحديث عن هذا
الحب ؛ ثم انبثت البلبل ينشد أهوازيجه من جديد ، على الشجرة

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعي في
النقد ؛ إذ كان هو أول ما بين الرافعي والأستاذ عبد الله عفيفي ؛
فإني لأقدم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التي
مهتدت للرافعي من بعد أن ينشئ كتابه (على السفود) في
نقد ديوان الأستاذ العقاد

في سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية هو المرحوم محمد

الزمان والمكان وبفهم نفوس الغير سريعاً . ذلك الذي يعلم
شيئاً عن كل شيء ، وكل شيء عن شيء ما ، فلا تكون
« الانسانيات » وغيرها عنده بمجهولة كل الجهل ؛ ذلك الذي
ليس باللاذع في نكاته ، وليس بالسرف المتبذل في شهواته ، لأن
الجسد عنده هيكل الروح القدس ؛ ذلك الذي إذا شهد التمثيل
الحزن أو المضحك استمع له في صمت وجلال وانفعل في صمت
وجلال ؛ ذلك الذي لا يذهب إلى الحرب إلا مقتنعاً بمجدارة السبب
والذي يمشي مسروراً دائماً مهما أخطأ ، فإذا مات لم يطمع في أن
يسجل له ذووه على قبره مفخرة واحدة !! (١)

وهذه الثقافة كما ترى تدعو للعالية بكافة الطرق ، ونستبدل
بأبطال الحرب أبطال الانسانية والعالم ، وتدرس التاريخ تدريجاً
بمبدأ عن العصبية الوطنية كما نصح المسيو موسار في مؤتمر
التربية الخلقية الذي عقد بباريس منذ أعوام ، أعنى أنها لا تعتبر
نابليون بطلاً مغواراً وقائداً عظيماً بقدر ما تصوره مصلحاً لم يبق
من آثاره إلا تلك الأعمال السلمية النافعة .

محمد حسن ظاظا

« يتبع »

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(1) Sturt & Oakden : Metter & Method.

سكة الحديد ، ودلال وازدهاء على الموظفين في محكة طنطا الكلية الأهلية ، حيث كان يعمل جنباً إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ١

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكي فرائد كبيرة ؛ فقد تمطف الملك الكريم فأمر بطبع كتاب (إنجاز القرآن) على نفقة جلالة ؛ كما أذن بإرسال ولده محمد في بعثة علمية لدراسة الطب في فرنسا ؛ فظل يدرس في جامعة ليون إلى سنة ١٩٣٤ على نفقة الملك ، حتى شاء الإبراشي باشا لسبب ما أن يقطع عنه المونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإففاق عليه ما بقي . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر في فرنسا من نفقات العيش والجامعة كان هو يعمل في (الرسالة) بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينوء به جسده وتنتهك أعصابه ... ١

قلت إن الرافعي ظل في حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين الإبراشي باشا أمر - بعد موت الرحوم نجيب باشا - فسكت ؛ إذ خشي أن تصف به السياسة أو تبت به الدسائس فترى به إلى تهلكته ...

حدثني الرافعي قال : « كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقاني بوجه طلق ، ويحتق بي ، ويسط لي وجهه ومجلسه ، ويشلج صدرى بما يروى لي من عطف الملك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسى ترداد عمقاً وتمتد طولاً وتبسط سعة ؛ ثم جاء الإبراشي باشا ، فلم تدعني داعية إلى لقائه حتى كان يومٌ وجدني فيه منطلقاً إلى هناك ، لأسأله في أمر من الأمور ...

قال : « وذهب الساعي إليّ بالبطاقة ودعاني إلى الانتظار ، فجلست ، وما أظن إلا أنها دقائق ثم أدعنى إليه ... وطال بي الانتظار ، ومنضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا في هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحولى من ذوى الحاجات وجوه عليها طوايع ليس على وجهي منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسي فضجرت ، فعدت أستاذن عليه وقد جال بنفسى أنه قد نسي مكاني ، فماد إليّ حاجيه يقول : الباشا يمتدز إليك اليوم ، ويسألك أن تمر به غداً في الساعة كذا ...

الفيئانة في حديقة قصر الملك ، فصنت إليه القلوب وأرهفت له الأذان ...

واستمر يرسل قصائده في مديح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ ، حتى وقع بينه وبين الأبراشي باشا أمر - بعد موت الرحوم نجيب باشا - فسكت ، وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران ، بعدما أنشأ الخصومة بينه وبين عبدالله عقيقي ... وعند الأستاذ إسماعيل مظهر تفصيل ما سأرويه من خبر هذه الحادثة بعد

وقصائد الرافعي في مديح الملك فؤاد نظام وحدها في شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة في موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمت إليه ؛ فلولا بيتان أو أبيات في القصيدة الحسينية أو السيمينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لا رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما نشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . إقرأ قصيدة الخضراء - معنى الراية - وقصيدة الصحراء في رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، وأقرأ غيرها ؛ فانك واجدٌ فيه هذا الذي ذكرت ، وواجدٌ فناً في الشعر تعرف به الرافعي في المديح فوق ما عرفت من فنونه ؛ فإذا حققت هذه الملاحظة في مدائح الرافعي وثبتت عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمس لها تفسيراً من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعي نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها

لقد كان الرافعي يجهل السياسة جهلاً تاماً ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسي ناضجة تامة : من الاحتيال ، والروغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . كلى كانت له أخلاق السياسيين في إبداع الحيلة والاستعداد للخروج ، ولكن لم يكن له في يوم من الأيام هوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأياً فيها ، أو يدري من خبرها أكثر مما يدري رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء

ولم يكن للرافعي أجر على هذا المنصب في حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجازي في الدرجة الأولى على خطوط

« ولكن ... ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يمتب ، بل اعتذر إلى وألح في الاعتذار ... وصدقته حين ابتسم ... »

وأسرها الإبراشي باشا في نفسه ؛ فلما كان الموسم التالي نظم الراجي قصيدته وأرسل بها إلى القصر ، ورُصِفَتْ حروفها مشكولة في مطبعة دار الكتب - كما جرت العادة - ثم أرسلت بحروفها مجموعة إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مرئية ، من نظم الأستاذ عبد الله عفيفي المحرر العربي بديوان جلالة الملك . ونشرت القصيدتان جنباً جنباً في جريدة واحدة ، وعلى نظام واحد ، وكلاهما في مدح الملك ، فما يفرق بينهما في الشكل إلا توقيع الشاعرين في ذيل الكلام

وقرأ الراجي قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزجر ، وقال لمن حوله : « أترون كيف يصنع بي ؟ إنه يريد أن ينال مني . (يريد الإبراشي) أهذا شعر يقرن إلى شعري ؟ أيراني وإياه على سواء ؟ أيجب أن الأدباء سيخضعهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبه شاعراً من طبقتي أو يجعلوني شاعراً من طبقته ؟ أيراني من الهوان بمنزلة الذي يرضى عن هذا المبت ؟ أفيريد أن يمهّد لصاحبه حتى يخلفني عن مرتبة « شاعر الملك » ليحمله مكانى ؟ أم يراه أهلاً ليقاسمني المنزلة والمقدار عند صاحب التاج ... »

ومضى الراجي يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فاذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لا بحقه ؛ فما يجد له حيلة في إجلاله عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضي ... وكان القاضي عند الراجي في هذه القضية هو الرأي الأدبي العام ، فرفع أمره إليه ...

وتحدث بنيتة إلى صديقه الأستاذ اسماعيل مظهر صاحب مجلة المصور ، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحلقة على الأستاذ عبد الله عفيفي في مقالات عنيفة صارخة بعنوان : على السفود ! وما كان الراجي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يمرض لنقد هذا الشاعر ؛ فإنه يعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات ، فتسكر وأخفى نفسه ...

محمد سعيد الصديقي

« لها بقية »

قال الراجي : « وآذاني ذلك ونال مني ، ولكنني اعتذرت عنه . فلما كان الغد ، جاءني النبأ ينشئ إلي زَيْنَ الشبَابِ المرحوم أمين الراجي بك ؛ فأدنى لهم وتقل علي ، وضاقت نفسي بما فيها وتوزعتني الوسوس والآلام ؛ وما نسيت وأنا أمشي في جنازة الفقيد العظيم أن علي موعداً بعد ساعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت في طريق عدواً إلى القصر وفاء بالوعد الذي أتمدت ، وجعلت من وراء ظهري ما علي من واجب المجاملة لمن جاءوا يمزونني في أخي وابن عمي وصاحب الحقوق علي . لقد كان الذي مات زعيماً من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكنني جعلت الوفاء بالوعد فوق ما علي من الواجب للزعيم الذي مات ؛ وإنه لأخي ، وإن في أعراقه من دمي وفي أعراقي ... »

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لي فأدخل ، وطال بي الانتظار كذلك وإن في دمي جرات تتلهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلسي ذاك أطلع وجوه الداخلين والخارجين من غرفة الباشا ولا يؤذن لي ... »

قال الراجي : « وهاجت كبريائي وفارت حماقتي ... لا أكذبك يا بني ، إن في لحاقة . ولكن ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إلى في أسلاب أجدادي من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرت إلي صارت حماقة . إن هذه اللحاقة عندي يابني هي تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ما تحطت إلى هذا الزمن البعيد في تاريخ الأجيال ... (١) »

قال : « ولما بلغ الخلق في مبلغه نهضت وفي يدي عصا ، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالمصا وأنا متعيط محنت ، فاذا أنا أمام الإبراشي باشا وجهاً لوجه ، وإلى جانبه رجل أوربي يحذنه ... فلم أعبا ، ولم أكرث ، ولم أذكر وقتئذ أين موضي وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لنفسي ، وفأرت لكبريائي . وأحسبني قد خرجت يومئذ عن حدود اللائق في الحديث معه ، ولكنني لم ألق بالاً إلى شيء من ذلك . وما كان في نفسي إلا أنني قد قلت ما ينبغي أن أقول لأحفظ كرامتي وأصون نفسي ، ولا علي بعد ذلك من غضبه أو رضاه ... »

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هي كلمة الراجي بنصها كما حكاه لي ، وقد كتبها في مذكرتي بعد حديثه بها ، فتلقاها اليوم من هذه المذكرة